أسباب القلق الاوروبي

بقلم غسان سلامة

يعبّر قادة الاتحاد الاوروبي، حين تسنح الفرصة بلقائهم هذه الايام، عن مشاعر عميقة بالقلق ازاء احوال البلدان المشاطئة للمتوسط. فالفرنسيون، مثلهم مثل الالمان والطليان والانكليز، ينظرون بقدر من التهيّب نحو اجتماع مالطا الذي سينعقد بعد شهر من اليوم ليجمع مجدداً وزراء خارجية نحو ثلاثين دولة اوروبية ومتوسطية، لمتابعة ما تم اطلاقه في برشلونة خريف ١٩٩٥ في بناء صرح من الشراكة بين ضفتي المتوسط.

فصورة المتوسط اليوم تبدو قاتمة الى حد كبير، ومشروع الشراكة يبدو أصعب تحقيقاً مما بدا لهم غداة برشلونة. واسباب الهم متعددة تبدأ في تركيا بالذات التي اعتمدت اخيراً ديبلوماسية هجومية تسعى خلالها لفرض مبدأ دخولها كعضو كامل العضوية للاتحاد الاوروبي، مما اثار حفيظة المستشار كول والحكومة الالمانية ودفع تجمّع الاحزاب الديموقراطية المسيحية المسيطرة حالياً على السلطة في المانيا واسبانيا خصوصاً الى موقف هجومي مضاد نقلها من التحفظ عن دخول تركيا في صلب الاتحاد الى الرفض الصريح القاطع لهذا الاحتمال. ودخلت العلاقات الاوروبية – التركية جراء هذا التجذر في الرفض، وبسبب تجميد البروتوكول المالي مع تركيا، وازدياد المخاوف من حزب الرفاه الاصولي، مرحلة من التوتر والعصبية، جعلت اللقاءات مع القادة الاتراك صدامية مؤلمة.

اما في المغرب العربي، ورغم اتفاقات الشراكة الثنائية مع كل من تونس والمغرب، فالاحوال لا تبشر بالاستقرار. ذاك ان العقوبات المفروضة على ليبيا ستبقى قائمة، وستبقى طرابلس الغرب مغيبة عن اجتماع مالطا. اما الحال الجزائرية فقد تدهورت خلال رمضان الماضي بصورة دموية مفجعة ادت الى اندثار الآمال التي كانت الانتخابات الرئاسية قد احيتها في اوروبا خريف ١٩٩٥ بتوصل الجزائر الى نوع من الاستقرار الامني وولوجها باب الحلول المؤسسية.وفي كل من تونس والرباط نوع من التراجع الضمني عن مبدأ تحويل المنطقة منطقة تجارة حرة نظراً للاصلاحات الهيكلية التي ينبغي القيام بها لكي لا يؤدي قيام تلك المنطقة الى القضاء على الصناعات المحلية، وعلى الموارد الضريبية المعتمدة بصورة اساسية على فرض المكوس على الواردات.

وفي جوار المتوسط، برز اكثر من مؤشر سلبي ولاسيما مع ايران، اذ يعترف الاوروبيون اليوم بان "الحوار النقدي" الذي بدأوه مع طهران لم يؤد الى نتائج ملموسة تسمح لهم بمقارعة الرأي العام الاميركي الداعي للقطيعة التامة مع النظام الايراني. وتشعر بون بقدر كبير من الحرج عشية صدور الحكم المتعلق بحادثة "ميكونوس" والذي قد لا يكتفي بتحميل مسؤولية اغتيال بعض الناشطين الاكراد لعدد من مناصري ايران بل قد يطاول الحكم ايضا شخصيات بارزة في النظام

– التتمة في الصفحة ١٨ –

◄ أسباب القلق الاوروبي

– تتمة المنشور في الصفحة ١ –

الايراني نفسه. اما في السودان فالحرب مشتعلة بين النظام ومناهضيه، بينما تسعى اثيوبيا الى ادخال قبرص في الاتحاد الاوروبي و٤٠٪ من الجزيرة ما زال تحت الاحتلال التركي. وبينما لا تزال قضية البوسنة مفتوحة على احتمالات عديدة، انهارت الدولة تماما في البانيا دون ان يتمكن الاتحاد الاوروبي من نزع هذا الفتيل الجديد او معالجة الازمة بمفرده، فيما تلوح مؤشرات الى انهيارات مماثلة مقبلة في مقاطعة كوسوفو (من يوغوسلافيا السابقة) وفي مقدونيا وربما في بلغاريا ايضا.

فمن بحر ايجه للبلقان، ومن المغرب حتى الداخل المتوسطي الاسيوي (ايران) او الافريقي (السودان والزائير ايضا)، تتعدد التحديات الدموية وتتكاثر امام اتحاد اوروبي يمرّ هو الاخر بمرحلة حاسمة عشية قمته المرتقبة في امستردام في حزيران المقبل حيث عليه ان يطوّر مؤسساته نحو نوع من الفيديرالية، وعليه ايضا ان يتخذ قرارات حاسمة في شأن التوصل الى نقد اوروبي موحد بينما ما زالت بريطانيا تعارض تلك الخطوة وبينما تجهد دول اخرى عديدة (بينها ايطاليا واسبانيا) للجم العجز في موازاتها كي تتمكن من الدخول في واحة العملة الموحدة. ولا يسهم التوقع (بل التوجس) من نتائج الانتخابات البريطانية المقبلة في اشاعة الطمأنينة وفي توضيح الرؤى، اذ يتخوف عدد من الاوروبيين من عودة طوني مايجر هزيلا الى رئاسة الحكومة، بينما يتخوف آخرون من فوز العمال الذين طال غيابهم عن السلطة فترة عقدين من الزمن حتى امسوا رقماً مجهولاً يثير الحيرة والتساؤل.

* * *

من كل هذه الهموم، يبقى الشرق الاوسط، في الصميم. وقد فوجئ الفرنسيون بنوع من الاستخفاف اللبناني عندما عبّر وزير خارجيتهم عن قلقه ازاء تطور الاحوال في المنطقة. فمنهم من اجابه بأنه يبالغ في التشاؤم ومنهم من قال له ان جولته على المنطقة كانت في غير اوانها. اما موفد الاتحاد الاوروبي موراتينوس فوجد في بيروت من رأى انه يكثر من الكلام، او يقدم على التصريحات الرعناء وكأن بيروت التي راهنت سابقاً على دور اوروبي وقت كان الآخرون في حضن الاميركان الدافئ، لم تعد تأخذ اوروبا محمل الجد، او لم تعد جدية بصورة كافية لكي تقارب المسائل الكبرى بما ينبغي من الاهتمام، وخاصة ان الاوروبيين يجدون في عواصم المنطقة الاخرى اشتراكاً واسعاً بالقلق، واهتماماً يبدو اوضح بما يمكن لاوروبا ان تقدمه لانقاذ مسيرة التسوية. اما نظرة اوروبا الى احوال المنطقة فهي تحمل العناصر التالية التي قد يتفق المرء معها او يختلف:

● في الموضوع الفلسطيني، يرى الاوروبيون ان الجانب الانتهازي من شخصية رئيس الحكومة الاسرائيلية بدأ يغلب على جانبه الايديولوجي، وانه في النهاية سياسي شاب في مطلع حياته السياسية وهو لا يريد ان يقضي عليها بسرعة. لذا فهم يتوقعون منه مؤشرات، متزايدة الى تعامل واقعي مع الامور. ويرى الاوروبيون ان القيادة الفلسطينية استطاعت في الاشهر الماضية الاستفادة قدر الامكان من ارتباك النخبة السياسية الاسرائيلية بحيث اصبحت الاكثرية الساحقة من الاسرائيليين تتخوف من مجرد التفكير في المستقبل بدون ان تكون هناك سلطة فلسطينية في الطرف المقابل يتم التفاوض معها باستمرار. وترى اوروبا ان الحكومة الاميركية تركز جل اهتمامها على الشأن الفلسطيني، مدفوعة من اعتبار مفاده ان جوهر النزاع، وان التهديد الحقيقي على اسرائيل، وان تأييداً واسعاً للتعامل الايجابي مع السلطة الفلسطينية بات يسيطر على مواقف الجماعة اليهودية في اميركا، سواء داخل الحكومة او في الجامعات وبيوت المال.

لذلك تتميز التحليلات في هذا المجال بقدر من الارتياح الى ان قضية مستوطنة ابو غنيم او موضوع اقفال المكاتب الفلسطينية في القدس او الاطباق على الصادرات الفلسطينية قضايا ستبقى الى حد بعيد تحت سيطرة رجال السياسة من الطرفين. لم القلق اذن؟ تعلو نغمة تشاؤمية عند الحديث عن محادثات الوضع النهائي للاراضي الفلسطينية المحتلة من انشاء دولة الى حل معضلة القدس والمياه واللاجئين. ويقدّر الاوروبيون هنا ان هذه المحادثات قد تصل بسرعة.

الى المأزق لانعدام وجود أكثرية في الكنيست تسمح للحكومة بتقديم ما يعتبره الجانب الفلسطيني الحد الادنى المقبول للتوصل الى تسوية. وفي حال بدأت المفاوضات الثنائية خلال الاسابيع المقبلة، فاحتمال توصلها الى طريق مسدود كبير جدا قبل نهاية السنة.

● أما في الموضوع السوري – الاسرائيلي، فان الاوروبيين قد توصلوا الى اقتناع بأن اسرائيل اقنعت الولايات المتحدة بتجميد التفاوض على هذا الملف الى أجل غير محدد ويرى الاوروبيون ان هذا المنحى يحمل في طياته مخاطر جمة ولكنهم يعترفون بعجزهم (حاليا على الاقل) عن تعديله اسرائيليا ام اميركيا. وكان التوقع في لندن وبون وباريس ان يعود السوريون والاسرائيليون الى التفاوض قبل الصيف المقبل، ولكنهم باتوا الان يأملون في حصول ذلك في الخريف في أحسن الاحتمالات. وفهم الاوروبيون من لقاءاتهم العديدة بالقيادة الاسرائيلية انها ليست على وشك تقديم اي مقترح ايجابي فعلا في مسألة الجولان. وفهموا من الوفد السوري المتجول على عواصمهم ان دمشق لا تتوقع عودة سريعة للمفاوضات ولا تعبيرا عن اي حسن نية اسرائيلية تجاه سوريا.

واذ يرى الاوروبيون ان تجميد التفاوض السوري – الاسرائيلي خطأ على واشنطن ان تعود عنه، فهم يحاولون التعويض عنه من جانبهم بتكثيف الحوار مع دمشق وبمحاولة اقناع واشنطن بأهمية مبدأ السلم الشامل ولا يجدون أذنا صاغية لهذا المقوف الا في القاهرة التي تبدو كأنها تشاركهم المخاوف. ثم انهم يحاولون البناء على موقف دمشق الايجابي من مسيرة برشلونة، مؤكدين باستمرار ان هذه المسيرة لم ترتبط في نشأتها (ولن ترتبط في مالطا وبعدها) بالتموجات والتعرجات الدائمة في مسيرة المفاوضات بين العرب واسرائيل. وهم يأملون بالذات ان تتفق الدول المتوسطية، بما فيها سوريا، على شرعة للاستقرار السياسي والامني في المتوسط، وعلى اطلاق مشاريع جماعية متوسطية في مجالات الطاقة والنقل والمياه لا تكون مشروطة بالتقدم في مسيرة التفاوض مع اسرائيل.

● ويساور الاوروبيين قلق مماثل في ما يخص الملف اللبناني – الاسرائيلي. فباريس (خصوصا) وروما وبون ولندن (ايضا) لا تتخوف من عمليات عسكرية كبرى مثل "عناقيد الغضب" فحسب، بل امست تتخوف من الآثار السلبية لمجرد تجميد البحث في قضية جنوب لبنان على الاوضاع الداخلية اللبنانية الامنية والاقتصادية والمالية وبالتالي الاجتماعية. وهي تأمل من واشنطن عدم الاكتفاء بالجانب المهرجاني لاجتماع "أصدقاء لبنان" بل السير قدما في تأمين الدعم الخارجي الضروري للاقتصاد اللبناني، فيما تبحث العواصم الاوروبية عن الطرق الآيلة لنزع فتيل التأزم في جنوبنا بطريقة تنفع لبنان من دون ان تمس مباشرة بالمصالح السورية العليا. وبات الاوروبيون يعترفون لفرنسا بأنها كانت محقة في اهتمامها بلبنان وفي سعيها الحثيث لانشاء لجنة دولية لمراقبة وقف اطلاق النار في جنوبه، بل انهم انتقلوا الى موقع العتب على باريس لانها لم تشركهم آنذاك في مسعاها، علما بأنهم كانوا في حينه يشككون في جهود فرنسا ويشمتون بها. اما اليوم فانهم يجمعون على اعتبار انشاء تلك اللجنة ونجاح باريس في تعيين ديبلوماسي اوروبي متخصص بمتابعة عملية التفاوض انجازين حققتهما باريس لما فيه مصلحة اوروبا الشاملة، وهم في الاجمال يعتبرون ان نجاح موراتينوس في اطلاق النقاش حول افكار قد تبدو قابلة للاعتراض احيانا افضل من اكتفائه بدور شاهد زور عاجز عن مواكبة المفاوضات وعن التأثير عليها. بل انك بت تسمع في المانيا وايطاليا افكارا كانت حتى وقت قريب محصورة في فرنسا، ومفادها ان الاتحاد الاوروبي لا يسعه ان يبقى الى ما لا نهاية الممول الاول لتسوية شرق اوسطية لا يشارك سياسيا وأمنيا في وضع هندستها وفي تقدمها.

هذا جوهر التفكير الاوروبي عشية لقاء مالطا ويغلب عليه، كما نرى، اهتمام متجدد بل حثيث بدور اوروبي فاعل في المنطقة ينمو تدريجا، واهتمام مماثل بطرح افكار اوروبية ذاتية لا تكون صورة باهتة عن الافكار الاميركية. ولدى الاوروبيين من الواقعية ما يكفي كي لا يبحثوا عن الحلول مكان الاميركان في رعاية عملية التسوية، لكن لديهم الان من الاصرار ما يدفعهم ايضا لبلورة موقف ذاتي مميز. وقد لا يشترك القادة العرب جميعا في مستوى القلق الاوروبي من الاحوال الحاضرة، وقد يعترضون (وهم فعلا اعترضوا) على عدد من الافكار الجديدة المتعلقة بالتسوية او بمستقبل العلاقات المتوسطية وعملية صياغتها ذات المصدر الاوروبي. لكن العرب يخطئون ولا شك ان اصبحوا "ملكيين اكثر من الملك". فاذا باتت واشنطن قابلة بدور اوروبي فاعل في المتوسط وفي الشرق فلا يسعهم ان يقوموا من جانبهم برفض ذلك الدور. واذا تأففت اسرائيل من دخول هذا اللاعب الجديد الى الساحة فما ذلك غير سبب اضافي للترحيب العربي به.

غسان سلامة